Al-Dirasat Al-Islamiyyah (Islamabad) 15-16:2 (1980-81

الافتتاحيـــــة

ان اللفظ لم يستعمل الا للمعنى ، وكلما يكون اللفظ محسنا فى تعبيره عن معناه كلما يزداد فى حسنه ، فحسن الفظ يقتصر على حسن التعبير عن المعنى، لأن غاية اللفظ هو المعنى .

ان تاريخ اللفظ والمعنى قديم جدا مثل قدامة التاريخ الانسانى ، فكما ان الانسان فى عهده القديم قلما يتعرض للباطن ويتصدى للظواهر ، كالصبى لاينظر الا الى ظاهر الشيء ورونقه وبريقه وهو عما فى باطنه من المعانى والمنافع غافل ، فكذلک الشعوب والأمم تبقى فى دوامة اللفظ مالم تنضج عقولها وتبلغ اشدها .

وانک لتجد معركة اللفظ والمعنى فى نضال مشركى مكة واصحاب محمد ﷺ ، كان مشركو مكة يصلّون وما كان صلواتهم عند البيت الامكاء وتصدية . وكانوا يحجون ويقولون لبيک اللهم لبيک ، لا شريک لک الا شريكا تملكه وما ملک . فكان اجتماع الصلوٰة والحج تقليدا يتوارثه الأبناء عن الآباء بدون ان يدركوا غايته ، ولفظا ينطقونه بألسنتهم وهم لا يعرفون معناه . فأخبرهم الله سبحانه وتعالى أن الصلوٰة ذكر الله وطمأنينة القلب ، وغايتها تصفية المجتمع من الفحشاء والمنكر . والحج ذكر الله واعلان التوحيد وابتغاء فضل الله ، وغايته أن يشهدوا منافع لهم أى التعارف بين الناس وتبادل الأفكار والعلوم والخبرات بين الناس ، والاستفادة من تجارب الآخرين فى العلوم والصناعة والتجارة والسياسة وما الى ذلک ، كما ان الزكوة غايتها طرد الفقر والعطل من المجتمع وتحسين احواله فى المأكل والمشرب والملبس والمسكن والتعليم وكل ما فيه تقدم المجتمع ، وليس معناها ان نبقى الفقراء والمساكين ونعودهم على التسول والتكفف امام الناس .

© Dr Muhammad Hamidullah Library, IIU, Islamabad. http://iri.iiu.edu.pk/

ان الناس كانوا ينظرون الى الزعماء وعظام الناس وكبرائهم ويتأثرون بأخلاقهم الفاضلة فمنهم من يحب لفظهم أى صورتهم فيعملون تماثيلهم ولم يلبثوا الا وهم يسجدون امامهم ويعبدونهم ، ان هوءلاء متبعو اللفظ ، أما من ينظر الى المعنى فهو ينظر الى حسن عملهم وسيرتهم الطيبة ، فيجعل خلقهم الكريم أسوة له .

ان سنة الرسول ﷺ كانت اتباع القرآن وحل القضايا باستنارة كتاب الله وبموجب الظروف الراهنة على مستوى علم العصر، وكان يعنى بجميع أعماله العدل والاحسان والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وتوجد أمثلة عديدة أن رسول الله ﷺ يأمر بشيء فيأتى عنده رجل ويخبره ان فيه ضرر للناس ، فيقول عليه الصلوة والسلام : فلا أذن .

وقد نشأت منذ العصر النبوى فكرة اتباع اللفظ غير اننا نرى ان الأغلبية كانت تعرف المعنى وتقصده ، ولما طال الزمن غلب متبعو اللفظ ، وضعف متبعو المعنى ، ولكننا نرى فى الفقه الاسلامى وفكره رجالا اقاموا ثورات ضد اتباع اللفظ ، فهذا عمر رضى الله عنه كان يجتهد فى تعرف الحكمة التى نزلت فيها الآية ويحاول معرفة المصلحة التى جاء من أجلها الحديث ويأخذ بالروح لا بالحرف .

أن الرسول صلى الله عليه و سلم كان يراعى فى كل عمله أوضاع زمانه ومقتضيات عصره ، فلما أمر بالسواك كان معناه تنظيف الاسنان والفم ، فبأى طريق نبلغ هذا المعنى فاننا امتثلنا أمره عليه الصلوة والسلام ، ولكنى سمعت اماما يخطب يوم الجمعة ان تنظيف الاسنان بالفرشة والمعجون لا يحقق السنة ، وانما يجب ان نستاك بسواك من أراك . ونرى بعض الناس من متبعى اللفظ يضعون فى جيوبهم سوكا من أراك وعندما يقوم أحدهم للصلوة على المصلى يخرج السواك ويستاك به ثم يضعه فى جيبه ولا أرى فى عملهم هذا امتثالا لأمر رسول ﷺ ، وليس هذا

من عمل التنظيف المقصود فى شىء .

وقد فشا فى اعمال حياتنا اتخاذ اللفظ وترك المعنى ، فمن أراد أن ينظر هذه الظاهرة فى حياتنا فلينظر الى تعليم الدين عند المسلمين ، وحياتهم الدينى ، فالمدارس والمساجد وتلاوة القرآن وكل ما يسمونه بعبادة الله اسم ورسم ولفظ لايكاد يوجد تحتها معنى ، يصدق عليه قول القائل : بقى اللفظ وذهب المعنى.

كلنا يعرف ان الحصان كان له اهمية بالغة فى زمن رسول الله ﷺ وكان أثمن من البعير بكثير ، وما كان عند العرب الا عدد قليل من الجياد ، وكان نفعه فى الحروب والأسفار معروف بلاشك ، فلا غرابة اذ قال الرسول اننا نعطى ثلاثة اسمهم من الغنائم من يأتى الحرب على حصانه ، ولم يأخذ الرسول ﷺ زكاة على الخيل ، ولكن جاء بعد ذلك زمان ربى الناس فيه الخيول فكثرت ، وجاء اصحاب الخيل عند أميرالمؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله بزكاة خيولهم ، فتردد عمر رضى الله عنه فى قبولها ، قائلا : كيف آخذ الزكاة على الخيل وقد عفا الرسول ﷺ عنها الزكاة ؟ فأبى أصحاب الخيول الا ان يزكوا اموالهم ويؤتوا زكاة الخيول قائلين : نحن نربى الخيول ونكسب من تجارتها اموالا كثيرة ، ولا يحل لنا هذا المال الا ان نؤدى زكاته ، فقبل عمر رضى الله عنه زكاة الخيل بعد رد وتردد وامتناع .

ثم جاء عهد الامام ابى حنيفة رحمه الله تعالى وكان هو الآخر يهتم بالمعنى ، فقال يعطى الفارس سهمين من الغنائم،وذلك لما كثرت الخيول . فأنكر الامام الأوزاعى رحمه الله عليه حكمه قائلا ان الرسول ﷺ أعطى ثلاثة أسهم للفارس . والحق ان الفارس لوجاء فى عصرنا هذاوادّعى انه يأخذ ثلاثة أضعاف من راتب الجندى ، لا يكون دعواه مقبولة ، وانما نعطى اضعافا مضاعفة لمن يحسن سياقة الدبابة أو طائرة المطاردة أو طائرة قذافة. وصدق الامام أبويوسف رحمه الله لما رد على الاوزاعى رحمة الله عليه قائلا : قد بلغنا عن رسول الله ﷺ ما قال

الأوزاعى ، ولحديث رسول الله ﷺ معان ووجوه وتفسير لايفهمه ولا يبصره الا من اعانه الله عليه .

وقصارى القول ان تعليمات القرآن ترشدنا الى اعمال العقل وان نكون من أولى الالباب وان لاننتهى الى اللفظ بل ننظر الى مافيه من المعنى ونتبع الاحسن منه وان لا نقصر عقولنا واعمالنا على اقوال السلف وأحكامهم غير مراعين تبدل الاحكام وتغيير الزمان ، حتى نكون من عباد الله المخلصين .

(عبدالرحمن الطاهر السورتى)

****